معنى عبارة «ابن الله»

النص الإنجيلي الذي تناولته الترجمات العربية التاريخية يستخدم كثيراً عبارة «ابن الله»، وهو ما أثار الكثير من التساؤلات، وكان سبباً في سوء التفاهم المؤسف بين الإخوة المسيحيين والمسلمين. لذلك أصبح مُهِمًّا العمل على توضيح ما تعنيه وما لا تعنيه هذه العبارة في الإنجيل الشريف.

الله تبارك وتعالى لم يتّخذ صاحبة، ولم ينجب أولاداً من صاحبة، سبحانه وتعالى عن ذلك، فهذه الفكرة مرفوضة تماماً عند المسيحيين والمسلمين على السواء. وبهذا المعنى يتّفق الإنجيل الشريف على أن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

في هذه الحالة، إذ كان الإنجيل الشريف لا يفيد أية علاقة جسدية، ولا أية ولادة تناسلية، فما المقصود من عبارة «ابن الله» التي تظهر في الإنجيل الشريف؟ لنسجّل أولاً أن كلمات النصوص السماوية تحتمل عدة وجوه، حسب سياق الآيات التي تظهر فيها وأسباب نزولها. ففي القرآن الكريم تعني كلمة «أمر» فريضة، كما تعني أحياناً مسألة. وبذلك يكون المقصود في عبارة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (سورة التوبة 67) هو الفريضة، بينما في سياق آخر مثل ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (سورة الأنعام 58) يكون المقصود هو المسألة، وهكذا نرى أن اللفظ الواحد يحتمل عدة وجوه حسب سياق الآيات وسبب نزولها.

إن كلمة «ابن» تحتمل كذلك أكثر من معنى، حيث يمكن أن يقصد بها معناها الحرفي المرتبط بولادة الطفل من علاقة جسدية بين أب وأم، كما يمكن أن تأخذ معنى مجازياً رمزياً أو روحياً. فالعرب يقولون مثلاً إنَّ فلاناً «ابن الوطن» أو «ابن البلد» أو «ابن النيل». وهذا لا يعني أن كلاً من الوطن أو البلد أو النيل اتّخذ صاحبة وأنجب منها أولاداً. سيكون الأمر مضحكاً إذا نحن قصدنا ذلك. إذ إن الكلمة «ابن» في هذه العبارات تشير ببساطة إلى العلاقة العميقة من حيث الهُويّة بين شخص ما وأحد الأمكنة.

واللغة العربية تستخدم كلمة «الأب» بشكل مجازي رمزي أيضاً. فكنية «أبو عمار» لا تعني أن لصاحبها ولداً اسمه عمار، بل تعني رمزياً أن هذا الشخص مهندس وهب قسطاً كبيراً من

حياته لبناء بلده. والطبيب الفيلسوف أبو البركات البغدادي (ت 470 هـ/ 1077 م) سمي كذلك لأن الناس اعتبروه مصدر بركات في حياتهم.

كما أنّ اللغة العربية تستخدم كلمة «الأخ» بشكلٍ مجازي رمزي. فحين يخاطب شخص ما شخصاً آخر بكلمة «أخي» لا يعني ذلك أنهما ينتميان جسدياً إلى أب واحد. بل الكلمة إقرار بإنتمائهما الإنساني المشترك الذي قد يتضمن، أو لا يتضمن، العنصر الديني.

هناك عبارة مهمّة جداً في اللغة العربية هي عبارة «بنت شفة»، وهي تفيد كل كلمة يتفوّه بها شخص ما. فالقول «لم ينبس ببنت شفة» يعني أنه لم يتفوَّه بأية كلمة. إذ ليس المقصود أن شفتي الشخص قد اتَّخذتا صاحبة وأنجبتا بنتاً هي كلمته، بل المقصود أن الكلمة التي يتفوه بها الشخص هي بمثابة بنت رمزية له لكونها تنبع من ذاته وتعبّر عن شخصه.

والجميع يعرف كذلك عبارة «ابن السبيل» (انظر سورة البقرة 177 و215، سورة النساء 36، سورة الأنفال 41، سورة التوبة 60، سورة الإسراء 26، سورة الروم 38، سورة الحشر 7). فالعبارة لا تعني أنّ السبيل اتّخذ صاحبة وأنجب ولداً، بل تعني أن ابن السبيل هو شخص ضرب كثيراً في الطريق، لدرجة أنّ علاقة وثيقة تطوّرت بينه وبين السبيل، حتى إن الناس يفكّرون في الطريق بمجرد أن يروه.

كلمة «ابن» استُخدمت بشكل رمزيٍّ روحي في الحديث الصحيح أيضاً. حيث يقول نبي الإسلام مثلاً: «أنا أولى الناس بعيسى الأنبياء أبناء علات وليس بيني وبين عيسى نبي». والعلات تعني حرفياً الجواري. لكن الحديث الشريف لا يعني طبعاً أن الأنبياء كانوا أبناء جوارٍ. معاذ الله! فعبارة «أبناء علات» تعني فقط إنتماءهم لأب واحد من أمهات مختلفات. وهذا أيضاً لا يعني أنهم أبناء أب واحد أنجبهم جسدياً من أمهات مختلفات. فهذا أمر غير معقول! إنَّ الحديث يرمي إلى وجود رابط روحاني وطيد ووشيجة مشتركة بين جميع الأنباء لكونهم يخدمون إلهاً واحداً. هكذا نرى أن كلمة «ابن» يمكن أن تستخدم للدلالة على رابطة روحانية عميقة دون أن تتضمّن أية إشارة إلى المعنى الحرفي للعلاقة الجسدية.

وفي التراث الصوفي يطغى إستخدام هذه اللغة الرمزية للتعبير عن العلاقة الحميمة بين الإنسان وربه، فهم يشبهون عشقهم لله بالفراشة المنجذبة نحو النار. لكنهم لا يقصدون بذلك أنهم فراشات بالمعنى الحرفي للكلمة، أو أن الله عبارة عن لهيب نار. كما أنهم يشبهون هذا العشق

الإلهي بالعلاقة بين العاشق والمعشوق. لكنهم لا يستخدمون هذه الكلمات بالمعنى الحرفي المرتبط بعلاقات العشق بين بني البشر. لهذا ينبغي النظر إلى عبارة «ابن الله» على أنها إشارة للعلاقة الروحية العميقة التي لا تتضمن المعنى الجسدي للبنوة.

فالإنجيل الشريف لا يستخدم عبارة «ابن الله» بالمعنى الجسدي، بل نراها هنالك تتضمن ثلاث دلالات رمزية على الأقل:

أولاً: جميع الناس، بمعنى ما، هم أبناء الله. نقرأ في سيرة الحواريين (17: 28 - 29): ﴿إنّما نَحنُ عِيالُ اللهِ﴾.

لكننا نعرف أن هذا لا يعني أننا أبناء الله بالمعنى الحرفي للكلمة، أي أبناؤه كما لو أنه أنجبنا. معاذ الله! فالعبارة تعني بشكل رمزي أن الله يحبنا مثلما يحب الأب الودود أبناءه. الله يهتم بنا، ويعتني بنا، ويؤدبنا، ويعلِّمنا، ويطعمنا، إلخ. وهذا المعنى، رغم وروده في روايات الإنجيل الشريف بشكل عام، ليس المعنى المقصود في رواية الإنجيل التي نحن بصدد دراستها.

ثانيا: هناك معنى خاص لعبارة «ابن الله» نجده في إعلان الإنجيل الشريف أن كل الذين يؤمنون بالسيد المسيح (سلامُهُ علينا) يصبحون عيال لله. وهذا المعنى حاضر في الإنجيل الشريف الذي نحن بصدده والذي يقول مشيراً إلى السيد المسيح: ﴿وأمّا الّذِينَ اسْتَجَابُوا له وآمَنُوا به فقدْ مَنَحَهُمُ الحَقَّ في أنْ يكُونُوا عِيَالَ الله، ولَيسَت هذِهِ البُنُوَّةُ ذاتَ طَبيعةٍ بَشَريّةٍ بل إنّ اللهَ هُوَ مَنْ أسْبَغَ عليهِمْ تلكَ الصِّفة فجعَلَهُم عِيالَهُ﴾ (يوحنا 1: 12 - 13).

هذا المقطع يقصي بشكل واضح أي معنى حرفي لعبارة «ابن الله». فهؤلاء عيال الله لا من الناحية الجسدية، ولكن بمعنى أن الله يتبنَّاهم روحيًّا. الله يحبّهم ويعتني بهم مثلما يحب الأب الحنون أبناءَه ويعتني بهم.

ثالثاً: يستخدم الإنجيل الشريف عبارة «ابن الله» بشكل خاص للإشارة إلى الملك العظيم الذي كان بنو إسرائيل ينتظرون قدومه حسب نبوءات التوراة وغيرها من كتب الأنبياء الأوّلين. نقرأ في كتب الأوّلين أن النبي داود عليه السلام أراد أن يبني بيتاً لتمجيد الله ولكن الله لم يسمح بذلك، وأوحى إليه:

﴿وإذا تَمَّت أَيَّامُكَ لِتَنْصَرفَ إلى آبائِك، أُقيمُ مَن يَخلُفُكَ مِنْ نَسْلِكَ الَّذِي يَكونُ مِن بَنيكَ، وأُثَبِّتُ مُلكَه، فهو يَبني لي بيتاً وأنا أُثَبِتُ عَرْشَه لِلأَبَد. أَنا أكونُ له في مَقامِ الأبِ وَهُو يَكونُ لِيَ في مَقامِ

الابنِ، وأَمَّا رَحمَتي فلا أنزعُها عنه كما نَزَعتُها عنِ الَّذِي كان قَبلَكَ. وأُقيمُه في بَيتي وفي مُلكي لِلأَبد، ويكون عرشَهُ ثابِتاً لِلأَبد﴾ (كتاب أخبار الأيّام الأوّل 17: 11 - 14).

يبدو أوَّل وهلة أن هذه النبوءة تشير بمعنى ما إلى النبي سليمان ابن داود (عليهما السلام) الذي ورث عرش الملك عن أبيه، وبنى بيت الله المقدّس. لكننا حين نتأمل كلماتها أكثر نجد أن الحديث عن الابن الذي سيُثبَّت الله مملكته إلى الأبد لا يمكن أن ينطبق على سيدنا سليمان، لأن هذا الأخير توفي وورث الملك من بعده ملك آخر. لذلك نقول إن هذه النبوءة تشير إلى شخص آخر من نسل النبي داود سيثبت الله مملكته إلى الأبد.

بسبب هذه النبوءة صار بنو إسرائيل كلما اشتدت عليهم وطأة الجور والاضطهاد ينتظرون أن يبعث الله بينهم ملكاً باراً يحكم فيهم إلى الأبد، تماماً مثلما ينتظر المسلمون الشيعة اليوم قدوم الإمام المهدي. وقد كان بنو إسرائيل يطلقون على هذا الملك المنتظر اسم «المسيح» ومعناه في اللغة العبرية «ذاك الذي مسحه الله علامة على منحه سلطة السيادة». وكانوا يسمونه أيضاً «ابن الله» لأنّ الله أوحى إلى النبي داود: ﴿أَنا أكونُ له في مَقامِ الأبِ وَهُو يَكونُ لِيَ في مَقامِ الابنِ، وأَمَّا رَحمَتي فلا أنزعُها عنه﴾.

ويبدو واضحاً من هذه الآية أن كلمتي «ابن» و«أب» لا تتضمّنان أي معنى من معاني البنوّة الجسدية تجاه الله. فالمسيح المنتظر ينحدر جسدياً من نسل النبي داود. وبذلك نقول إن إشارة الآية إلى المسيح كابن لله هي إشارة رمزية تنبني على رباط المحبة والرحمة تجاه المسيح المنتظر.

هكذا يؤكد الإنجيل الشريف أنّ سيدنا عيسى المسيح (سلامُهُ علينا) تحقّقت فيه هذه النبوءة. وكان هو المسيح المنتظر، الملك العظيم. وبهذا المعنى تصبح عبارتا «المسيح المنتظر» و«ابن الله» مترادفتين من حيث تضمُّنهما المعنى نفسه في العديد من آيات الإنجيل الشريف الذي نحن بصدد دراسته. ومن هذه المواضع:

يوحنا (1: 49). وفيه نرى نثنائيل أحد الحواريين الأوَّلين يقول لسيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا): ﴿أيا مَولانا، إنَّكَ حقًّا الابنُ الرُّوحيُّ للهِ، أنتَ المَلِكُ الّذي يَنتَظِرُهُ بَنو يَعقوبَ﴾.

يوحنا (11: 27). وفيه تقول مرثا إحدى الأتباع مخاطبةً سيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا): ﴿أجل يا مَولاي، ما زِلتُ على عَهدي مُؤمِنَةً بأنّكَ أنتَ المَسيحُ الابنُ الرُّوحيُّ للهِ، الّذي كُنّا نَنتَظِرُ مَجِيئَهُ إلى هذا العالَمِ﴾.

يوحنا (20: 31): ﴿وإنّ ما وَرَدَ ذِكرُهُ مِن مُعجِزاتِهِ (سلامُهُ علينا) في هذا الكِتابِ إنّما لتَكونوا على يَقينٍ بأنّ عيسى (سلامُهُ علينا) هو المَسيحُ المُنتَظَرُ، الابنُ الرُّوحيُّ للهِ، فتَحصُلوا بفَضلِ إيمانِكُم بِهِ على نَعمةِ الحَياةِ الخالِدةِ﴾.

نلاحظ في هذه الآيات كلها أن عبارة «ابن الله» تعني ببساطة «المسيح المنتظر، الملك العظيم» كما لا تتضمّن أية إشارة إلى أي شكل من أشكال البنوة الجسدية.

جاء في الإنجيل الشريف أنّ اللهَ مُحِبٌ لعباده محبة الأب لأسرته، إذ يصف الله بأنّه رب بيت المؤمنين، ويصف المؤمنين بأنّهم من أهل بيته. والمقصود بذلك أنّ اللهَ يحبّ المؤمنين ويعتني بهم أكثر مما يعتني أبٌ بشري صالح بأولاده، وهم بدورهم يحبّونه ويسعون إلى طاعته وتعظيمه. أما السيد المسيح (سلامُهُ علينا)، فمقامه عند الله حسب النص الأصلي للإنجيل كمقام البكر الذي يتولّى أمر أفراد العائلة وأمر الخدم في البيت، وأحيانًا تضاف كلمة "الفريد" في وصفه. فهذا اللقب يشير إلى الصلة الحميمة بين الله والمسيح، وعلى هذا الأساس يمنح المسيح أتباعه الحق ليكونوا أهل بيت الله. وهذا اللقب يعني أيضا أنّه المسيح الملك المنتظر الذي يَمْلِك على المملكة الأبدية التي وعد الله بها لعباده الصالحين.

وهناك بُعد آخر لهوية السيد المسيح لا بدّ من الإشارة إليه. وفي بعض الآيات ترى إشارةً لكيان السيد المسيح (سلامُهُ علينا)، فهو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم العذراء وأصبحت إنسانًا بقوّة روح الله. وحسب الإنجيل كلمة الله هي صفة قائمة في ذاته تعالى. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نرى كيف يكون لدى سيدنا عيسى المسيح (سلامُهُ علينا) سلطة على بيت الله كسلطة الابن البكر عند الناس.

وبناء على ذلك يمكن القول إنَّه إذا كان يحق لكل نبي أن يقول: «مَن سمعني فقد سمع الله»، فإن الإنجيل الشريف يؤكد أن كلام الله قد أصبح إنسانًا قابلاً للرؤية بالنسبة لبني البشر، وذلك في شخص السيد المسيح الذي قال: ﴿حقًّا إنَّ مَن رآني رأى تَجَلِّي اللهِ الأبِ الرَّحمنِ في بَشَرٍ﴾.